هل النحو العربي أصعب أم النحو الألماني؟

أ. الخثير داودي
جامعة ميلة

الملخّص: *تتغيّا هذه الورقة البحثية تبيان أن قضيّة صعوبة النحو العربي، كانت يوما ما سلّما لطرحه، والانتقاص من شأن الفصحى، ثم وقفة مع أشهر النحاة الأوائل الذين أقرّوا بصعوبة النحو، ثم قراءة متأنيّة في أسرار صعوبة النحو العربي، لماذا هو صعب؟ وهي خاصيّة لا تنفرد بها العربية وحدها من بين سائر اللغات، بل هناك من اللغات ما هو نحوها أصعب بكثير من نحو العربية، كالنحو الألماني مثلا، ونظرا لوجود تشابه بين اللّغتين، ذكرنا أمثلة ونماذج من النحو الألماني، أثبتنا من خلالها أنه أصعب بكثير من النحو العربي.*

Résumé: *Le but de cet article est de montrer que la difficulté de la grammaire arabe était une fois une des causes pour négliger cette langue. Puis un aperçu sur les premiers célèbres grammairiens qui ont reconnu la difficulté de sa grammaire, puis une lecture attentive des mystères de la difficulté de la grammaire arabe, pourquoi est-il difficile? Une caractéristique qui n'est pas spécifique pour la langue arabe uniquement. Nous vous citons l'exemple de la langue allemande, en raison des similitudes entre l'arabe et l'allemend en matière de difficulté grammaticale, nous avons mentionné des exemples et des modèles de l'allemand afin de bien démontrer ce point.*

قبل أن نعقد المقارنة بين النحو العربي والنحو الألماني، يجدر تبيين أمر مهمّ –رغم تراحبه– للقارئ المتخصص، وسأوضّحه مختصرا في ذلك أشدّ الاختصار، وهو تفسير تذمّر بعض علماء من التعقيد الذي يلوح من نحو الصنعة ودوافع انتقاداتهم له. فمنذ أن استوى النحو أمّةً لوحده إلى يوم الناس هذا والمشتغلون بالعربية يتكلّمون عن قضية صعوبته، فسالت في هذه القضية ذات النبض والخفقان أودية من حبر، حتى احتمل هذا السيل زبدا ربيّا، ومن هذا الزبد

الرّابي الذي عكّر على العربية صفوها، الكتابات التي اتخذت صعوبة النحو مرقاةً للتهجّم على العربية والحطّ من شأن علومها.

فقبل ثورة ابن مضاء (ت:592 هـ)، على النحو العربي، كانت هناك طائفة تصدّى لها عبد القاهر الجرجاني (ت:474 هـ)، وهم "من المعتزلة، من أهل العلم، في بلدته جرجان وفي زمانه، كان لهم شغف ولجاجة وشغب وجدال ومناظرة في مسألة "إعجاز القرآن."[(1)] وهم من أتباع القاضي عبد الجبار (ت:415 هـ)، كما حقّق في أمرها الأستاذ الكبير أبو فهر محمود محمّد شاكر ومما قاله الجرجاني على لسانهم "وأمّا النحو، فظنّنته ضربا من التكلّف، وبابا من التعسّف، وشيء لا يستند إلى أصل، ولا يعتمد فيه على عقل، وأنّ ما زاد فيه على معرفة الرفع والنصب ومما يتّصل بذلك مما تجده في المبادئ، فهو فضل لا يجدي نفعا، ولا تحصل منه على فائدة."[(2)] حتى عُدَّ البحث فيه ضرب من الأباطيل والأضاليل لا لشيء إلا لصعوبة شكيمته، ولقد ناصب الجرجاني لهم العداء وكان لهم بالمرصاد في كل ما يقولونه، بعدما اكتشف منهم الخلفيات الفكرية التي ينطلقون منها لتحقيق أبعادهم الاعتقادية المغطشة –ليّا لأعناق النصوص– فخشي هنالك الجرجاني على حياة اللغة والنحو من هؤلاء الشرذمة الذين تنفّخوا واستطالوا على من قبلهم من النحو والنحاة.

وعلى أكبر الظنّ والترجيح أن الطائفة التي كان يعاني منها الجرجاني، كان لها امتداد إلى عهد الزمخشري (ت: 538 هـ) بحكم الزمن المتقارب بينهما وبحكم تحقيق أبي فهر للجماعة الأولى، ولقد ضاق الزمخشري ذرعا بما يكتم تجاههم من نص طويل له، منه قوله هذا: "ولعل الذين يغضّون من العربية ويضعون من مقدارها. ويريدون أن يخفضوا ما رفع الله من منارها. حيث لم يجعل خيرة رسله وخير كتبه في عجم خلقه، ولكن في عربه، لا يبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الأبلج."[(3)] بحيث نرى أن هناك تقارب بين الوصفين من حيث المضمون للإمامين.

ثم إن إماما بحجم الزمخشري لا يمكن أن يرفع عقيرته إلا إذا أحسّ بخطر جلل يداهم النحو الذي كان يسمّى عند بعض العلماء قديما باسم "العربية" بمعنى من أنكر النحو فقد أنكر العربية.

ويقول مرة أخرى عنهم، من نفس النص: "فهم ملتبسون بالعربية أيّة سلكوا غير منفكين منه أينما وجّهوا، كلّ عليها حيثما سيّروا ثم إنهم في تضاعيف ذلك يجحدون فضلها (...) فهم في ذلك على المثل السائر: الشعير يؤكل ويذم، (...) فإن صحّ ذلك فما بالهم لا يطلقون اللغة رأسا والإعراب، ولا يقطعون بينهما الأسباب."[(4)] وكما هو واضح في أسرّة هذه العبارات أن هذه الطائفة المتطرّفة لها إمارة في العلوم الإسلامية التي لا يُتولّج فيها إلاّ بعلم النحو وهو رأس علوم الآلة فإذا طُرِحَ دَبْرَ أذن الاهتمام، فإن هذا الطرح مدعاة للوهم ومضلّة للفهم.

ومهما يكن؛ فلقد عضبوا علم النحو وأعطوا صورة داجيّةً عنه حتى كأنّه ضرب من الرموز والحروز فأنّى يُعطى اللّيان والقياد لمن يسمع كلامهم ويأخذ به وذلك لأنّه أعياهم طول الكدح في إعمال الذهن ورشح الجبين في خلافات مسائله وإنه لا يأخذ بأقوالهم إلا آفك مثلهم بقانون العربية، وإن كنّا نجد صدى هذه الآراء منذ ذلك الوقت البعيد إلى اليوم، بطريقة أو بأخرى، ككتاب "لتحيا العربية، يسقط سيبويه!"، للشريف الشوباشي، نشره سنة (2004) الذي يعد آخر من قذع العربية بهذا الوصف الحالق بكتابه هذا الذي أشاعه للناس في العصر الحديث استهانة برموز اللغة والنحو.

ثم إنه لولا تفطّن الجرجاني وبعده الزمخشري آنذاك لهم وغضبتهم المضريّة في التصدي لهم لأظلمت ليالي العربية القمراء وتجهّمت أيامها الضحواء! كيف وأنهما ألّفا في علمها أثمن الكتب وأغلى الرسائل يفلّان بها هذه المزاعم المتهالكة. ومن جهة أخرى تفسّر هذه الردود من الإمامين على من أرادوا هدم بنيان النحو أن النّحو العربي حقّا صعب، وقد أصدع أكباد العلماء، فإذا لم يحمل المتولّج فيه

نفسه على مكروه المراكب الوعرة في مسائله، يظلّ أبد الدهر غريبا عن الفهم الصحيح الذي به يميّز بين الرغوة والصّريح، وهذه الصعوبة في قواعده كما يرى عبد السلام هارون أنما هي لـــ: "علو هذه اللغة وضخامة شأنها واتّساع مراميها وتشعّب أساليبها."[5]

إذن؛ عود على بدء، فمن أبرز العلماء العربية الأوائل الذين أقرّوا بصعوبة النحو العربي وأنه لا يمكن الإحاطة بكل تمفصلاته؛ عالم العربية الأوّل **الخليل بن أحمد الفراهيدي، (ت:175 هــ)** الثبت الحجّة، الذي شهد فيه ابن المقفّع بأنه "رجل عقله أكثر من علمه"، والذي أعلن بقوله كفاحا من دون تردّد، في خاتمة منظومته النحوية حيث يقول:

"النحـــو بحرٌ ليس يُـــدرك قعره   وعرُ السبـــيل عيونه لا تنضبُ
واقصدْ إذا ما عمت فـــي آذيّه   فالقصدُ أبلغُ في الأمور وأذربُ
واستغن أنت ببعضه عن بعضه   وصن الذي عُلّمتَ لا يتشذّبُ"[6]

فهذا كلام خرج من أحضان الخبرة والممارسة، بحيث يُنَظّرُ فيه "**الخليل**" للمتعلّم غير المتخصّص في هذا العلم –الذي شمخ بأنفه عن مقعد الهمّة في العربية– بالعمل بهذا المنشور، فالواجب أخذ الأهم فالأهم، الذي يحفظ اللّسان والقلم من الوقوع في اللحن لكي لا يتيه في أوديته وشعابه، فهذا هو المنهج التعليمي الذي يراه صالحا ومجديا.

أما صاحب الاختصاص المتفرّغ الذي أراد أن يخبر هذا العلم، فإنه يوجّه له قاعدة محكمة تدلّ على فكر نفاذ إلى مبطنات النحو، يكشف بها الغمّة بأوجز عبارة، حيث يقول: "لا يصل أحد من علم النحو إلى ما يحتاج إليه حتى يتعلّم ما لا يحتاج إليه."[7]

بمعنى أن النحو علم متكامل في أبوابه ودقائق مسائله كالهرم الواحد، فلا يمكن للفكر النحويّ أن يتتامّ إلا إذا اجتمعت أبوابه وتراسلت قضاياه، وهذا لمن

أراد أن يكون في سلّم الصعود في فهم العربية ومعرفة جمالها المتبرّج المسفر وجمالها المتخفي المندس، أساليبا وتراكيبا، ولعلّ العمل بهذه المقولة النحوية تستلزم تفرّغا كاملا وهذا لمن أراد أن يدرك صورة النحو وهيولاه بفهم عميق يدنو منه كل بعيد، وإن كان الوصول إلى هذا الشرف من العسر بمكان كيف وقد روى لنا التاريخ أن كبار النحاة ماتوا وفي أنفسهم أشياء من النحو لم يعرفوا الحكمة منها.

ولقد شكى حديدية النحو كبار علماء العربية منهم: **الجاحظ،** (ت:255 هـ) وهو الأديب الحصيف، يشكو من طريقة النحاة في كتبهم وصعوبة تناولها المادة النحوية، والنحو في عهده لا يزال عربيا أصيلا في قرونه الأربعة الأولى، وذلك قوله: "قلت لأبي الحسن الأخفش: أنت أعلم الناس بالنحو، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلّها؟ وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخّر بعض المفهوم."[8]

إذن؛ فهذا مثال من أمثلة كثيرة، كافٍ ومجزئٌ في البرهنة على صعوبة النحو وعسره لأنّ الجاحظ أديب اخصّائيّ له من المؤهلات ما يستطيع أن يضبط جميع علوم اللسان العربي ضبطا متقنا ومع ذلك يخامره هذا الشعور ويستكين لصولة هذا العلم الذي قد تلتوي فيه الأفكار وتنزوي منه النفوس، وتغور منه الأرواح، لا لشيء إلا لجبريته الرياضية التي تتمثل في معياريته الصارمة.

ومن كبار العلماء الاخصّائيّين في العربية اللذين أقرّوا بصعوبة النحو، **أبو حيان الأندلسي** (ت: 745 هـ)، وذلك أنه لما أحسّ بشموخ كتابه "تفسير بحر المحيط" على طلاب العربية، والذي اتخذ فيه علم النحو كوسيلة لفتح مغاليق النصوص، ووسيطا لاستكشاف أسرار التراكيب والفصوص، تراجع فيه بتأليف كتاب آخر لطلاب العربية لعلهم يذهنون له، وهو كتاب: "النهر المادّ من البحر المحيط" للتسهيل، وذلك أنّه أحسّ في قرارة نفسه ببعد العهد بين تفسيره والقارئ له، فكيف إذا كان هذا القارئ من المبتدئين، وربّما حتى ولو كان ذا قدم في اللغة

والنحو، يقول في مقدمة نهره: «وهذا النهر مدّه من بحر ليس له جَزْرُ، فتعسر وِرده على من حظّه في النحو نَزْرُ.»(9) فهذه العبارة على قصرها عميقة المغزى بحيث يُستشفّ منها أن لعلم النحو أمواج رجّافة يصعب التولّج فيها من لم يكن له عمر مديد في مباحثاته وصبر على مشكلاته الإعرابية التي عليها أكثر المعنى لإتقان أصوله وفروعه.

ولو ذهبنا إلى تفقّد حالة النحو في عهد النحاة المتأخرين الذين ظهروا بعد ابن هشام الأنصاري (ت:761هـ)، لرأينا أنه كلّما زاد على النحو ركام السنيين كلّما أزمت مسائله وقضاياه، فالنحو في عهد متأخري المتأخرين تكلّست قواعده وانتكست مناهجه، وكما قال الإمام بدر الدين النعساني، أنه في هذه الفترة "صار أعقد من ذنب الضبّ، فربّما اشتغل به طالبه وهو في قماطه، ومات بعد أن جاوز أرذل العمر، وهو لم ينته إلى أوساطه، وهذا من سوء اختيار المتوسّطين وشدّة جمود المتأخرين."(10)

فالشاهد من هذا، قوله: "صار أعقد من ذنب الضبّ" وهذا بسبب عدول النحاة عن غاية النحو التصويبية والاستنباطية التي وجد لأجلها، وبسبب زحف العلوم العقلية عليه كالفلسفة وعلم الكلام والمنطق، فزادت إلى صعوبته التي طبع عليها تعقيدات أشدّ، فبدا عوار التشقق يظهر في جوانب عدّة، ولاسيما إذا ضربت هذه العلوم العقلية مواطن الأصول كالقياس مثلا.

مع أن "الشكوى من النحو ولدت مع التصنيف فيه، وظلّت تنتقل من جيل إلى جيل، وتترفع الصيحات مطالبة بتيسير النحو التعليمي."(11) غير أن الشكوى من النحو في قرونه الأربعة الأولى، كانت خفيفة، لأن النحو في هذه الفترة كان عربيا أصيلا، وإن تسرّبت إليه بعض الفلسفيات لكنّها كانت قليلة، أما بعد القرون الأربعة إلى عهد الأشموني (ت: 929 هـ) فإنه قد تغيّر وأصبح نحوا عربيا خامّا وأصبحت كل مسألة فيه لها أكثر من تخريج في العربية.

✓ **من أشهر الكتب النحوية التيسرية عند القدماء:**

1. مقدمة في النحو، لخلف الأحمر، (ت: 180هـ).
2. مختصر في النحو، للكسائي (ت: 198هـ).
3. موقف الجاحظ في "كتاب المعلّم"، من تعليم النحو للصبيان (ت:255هـ).
4. الموجز في النحو، لابن السراج (ت: 316 هـ).
5. التفاحة في النحو، لأبي جعفر النحاس، (ت: 338 هـ).
6. الواضح في النحو، للزبيدي (ت: 379 هـ).
7. موقف شيخ المعرّة(ت: 449 هـ)، الساخر من التأويل والتقدير في رسالتي: "الغفران"، و"عبث الوليد".
8. الضروري في صناعة النحو، لابن رشد القرطبي، (ت:550 هـ).
9. المقرب، لابن عصفور، (ت: 669 هـ).
10. المقدمة الآجرومية، لابن آجروم، (ت:723 هـ).
11. إبن خلدون في مقدمته، (ت: 808 هـ).
12. المقدمة الأزهرية، لخالد الأزهري، (ت:905 هـ).

فهذه لمحة ببليوغرافية خاطفة عن الحركة التيسيرية للنحو عند القدماء من خلال عناوين كتبهم، تدل على صعوبة النحو، ابتداءً من مقدمة خلف الأحمر (ت:180 هـ)، إلى مقدمة خالد الأزهري (ت: 905 هـ)، وهذه الكتب التيسرية أكثر من أن تحصر هنا، والشيء الذي نريد أن نثبته أن كل نحويّ يسّر النحو حسب عقليات زمانه حفظًا للمقامات والظروف، فلو قارنا مثلا، بين مقدمة خلف الأحمر، (ت:180هـ). وبين مقدمة خالد الأزهري، (ت:905هـ). لرأينا أن مقدمة الأزهري كأخر نحويّ وضع كتابا في التيسير، أسهل بكثير من مقدمة خلف الأحمر، لأن بينهما سبعة قرون ونيّف، بمعنى العربية كانت في هرم النزول منذ

نشأة النحو، وبالتالي تلامذة الأزهري غير تلامذة خلف الأحمر، ولهذا يحتاج التيسير إلى تيسير.

ولو عرضنا مقدمة الأزهري التيسيرية على ذهنيّات طلاب علم العربية اليوم، في عصر التزويقات، لرُمِيَ الأستاذ بأنه يدرس الأحجبة والحروز والخرفات، ولهذا تضافرت الجهود على الجهود في تيسير النحو أفرادا وجماعات عند المحدثين ابتداءً من رفاعة الطهطاوي، صاحب: "التحفة المكتبية لتقريب علوم العربية"، الذي نشره سنة (1869)، إلى زكريا أوزون صاحب: "جناية سيبويه الرفض التام لما في النحو من أوهام"، الذي نشره سنة (2002).

وقفة متأنيّة مع أسرار صعوبة النحو العربي: من الملاحظات التي تستحقّ وقفة معرفية متغلغلة ولنتأكّد بها على أن النحو لما ارتقى إلى مستوى الصناعة والعلم المضبوط الدقيق شمخ وصعب، فعندما ننطلق من قول الأعرابي العفوي الذي فتح به بابا للاجتهاد، وذلك أنه لما مرّ على جماعة من النحاة يتناقشون فيما بينهم لهم دويّ كدويّ النحل من شدّة الجدل، فوسوس لكلامهم وأطرق، فحكم عليهم بأن قال: «أراكم تتكلمون بكلامنا في كلامنا بما ليس في كلامنا.»[12]

فهذا الحجم القليل من الكلمات، العميق في المعنى يثبت أن ظواهر التصدع الذي كان بين النحاة في النحو كان سببه الأول طبيعته الصعبة، "فالكلام في قوله: "تتكلمون بكلامنا" يعني اللغة كأداة تعبير بين الجماعة، والكلام في قوله "في كلامنا" يعني اللغة كموضوع للحديث والبحث، والكلام في قوله "ليس من كلامنا" يعني أن الألفاظ المستخدمة والتي هي من شائع ما يتداوله الناس قد أضحت لها دلالات اصطلاحية خاصة، وهذا بديهي لأن الأعرابي عندما كان يسمعهم يقولون: الرفع والنصب، والفتح، والكسر، والجزم، والسكون، إنما كان يذهب في فهم هذه الألفاظ إلى معانيها التي يعرفها، وهي معانيها اللغوية الأولى التي مازلنا نصادفها حين يقول: رفعت من شأنه، ونصبت الخيام، وفتحت الأبواب، وكسرت الأعراف

وجزمت بصدقه، وسكنت النفس بعد طول اضطراب."[13] فهذا هو الذي كان يتبادر إلى خواطر الأعرابي من المعاني اللغوية، ولا عهد له بالمعاني الاصطلاحية التي اتفق عليها النحاة.

والجدير بالذكر في هذا المقام، في التعليق على انطباع الأعرابي، التفاتة بارعة لأبي حيان التوحيدي عندما تعامل مع نادرة الأعرابي بفكر وقّاد، يقول: "إن الكلام على الكلام صعب. لأن الكلام على الأمور المعتمد فيها على صور الأمور وشكولها التي تنقسم بين المعقول وبين ما يكون بالحسّ ممكن، وفضاء هذا متسع والمجال فيه مختلف. فأما الكلام على الكلام فإنه يدور على نفسه ويلتبس بعضه ببعضه، ولهذا شقّ النحو."[14]

فالشاهد من هذا الكلام النفيس الذي يدل على اللبّ الحاضر والفهم الوافر في التعليق على قول الأعرابي قوله "فأما الكلام على الكلام فإنه يدور على نفسه ويلتبس بعضه ببعضه، ولهذا شقّ النحو" وهذه المشقّة كما كانت على المبتدئين محنة فكذلك كانت على الكبار النحاة، كيف لا وقد مات سيبويه وفي نفسه شيء من "حتى" التي اصطكت لها ركب النحاة قرون متطاولة بعده، وهناك من أكابر النحاة من مات ولم يعرف حدّ "نعم وبئس" بين الاسمية والفعلية، و"ليس" بين الفعلية والحرفية، والأمثلة في هذا الباب غزيرة.

ولهذا ظلّ رهان من كانوا يمارسون مهنة التعليم يتوسّلون بشتّى الطرق في استبانة ما غمض منه على ذهن المتعلّم فقد كانت "الشكوى من بعض قواعد النحو ونظرياته قديمة فليست كل الأذهان تتقبل قواعد الإضمار والتقدير والحذف، وتزداد هذه القواعد صعوبة في الفهم عندما تكون موجّهة للناشئة المبتدئين بتعلم العربية"[15]، والطفل في المرحلة الابتدائية ورقة بيضاء يستطيع المعلم أن يخطّ فيها ما يشاء، فإذا تعاملنا معه بالتلقين المستبد لمادة النحو، فإنه لن ينشط ذهنه في تشرّب هذه المادة العصيّة، وقد تكون هذه المادة سببا في كره المعلم وكل ما يدرّسه

من مواد أخرى، ولهذا قال الجاحظ "وأما النحو فلا تشغل قلب الصّبي به."[16] بمعنى لا تكثر على الصبي من النحو إلا بما يعصم لسانه وقلمه من اللحن ولا تزيد. وهذا منهج سلوكي نفسي في التعليم ينصح به الجاحظ وذلك مراعاة لمراحل العمر التي تخضع لها مراتب الاكتساب والطلب وذلك أن النحو مادام أنه عقل من نقل، فمنطقيّ جدا أن يكثر فيه الجدل والخلاف والتقابل والتضاد، وهذا يشقّ على قلب النشء.

حقيقة أخرى، وهي أن "الشكوى من العلوم المختلفة ظاهرة طبيعية لكنّها تبرز بوضوح في دراسة قواعد اللغة -أيّا كانت- لأن دراستها على مستوى ما مطلب قومي لحفظ اللغة، وقد يكون مطلبا قوميا ودينيا، كما في دراسة العرب المسلمين مستوى ما من قواعد اللغة العربية، فلأن دراسة اللغة مطلب عام كانت الشكوى من بعض قواعدها بارزة واضحة، ولو كانت دراسة الهندسة مثلا مطلبا يعمّ الناس جميعا لعمّت الشكوى منها، ومع ذلك لم تعن الشكوى منها حذف نظرياتها، وأسسها الصحيحة بحجة التيسير."[17]

فهذا هو السرّ المغيّب من أسرار الشكوى من النحو فالنحو لما كان مادة مقرّرة في جميع مراحل الطلب والتعلم حتى وإن لم يكن اختصاص الطالب "اللغة والنحو" من حفظ المتن إلى حيازة الفن فقد يتابعه طورا من السنيين أما عندنا اليوم في العصر الحديث فإنه مادة مقرّرة بنسب متفاوتة بين الشعب والاختصاصات في وزارة التربية الوطنية، في كامل أرجاء الوطن العربي إذا فالنحو طبع على الصعوبة حتى إن معلّمه طبع على الضعف فيه وعقدة النقص تجاه هذه المادة العلمية.

"ومن سنة الله في خلقه ألا تنشط بعض العقول لفهم بعض العلوم، فقد روي أن الأصمعي -على ذكائه- شرع في تعلّم العروض على الخليل ابن أحمد فتعذر

ذلك عليه فيئس الخليل منه، وسأله عن المعضوب الوافر، فقال له، يا أبا سعيد كيف تقطع قول الشاعر:

إذا لم تستطع أمرا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

فعلم الأصمعي أن الخليل فد تأذّى لبعده عن علم العروض، فلم يعاوده فيه."[18] والأصمعي (ت:216 هـ) هذا، من حَفَظَةِ اللغة فقد "حفظ ثلث اللّغة ولولا أنه شغل نفسه بحفظ الأخبار والأشعار لحفظ اللّغة كلها."[19] ومعلوم أن الأصمعي من أمراء العربية المشهورين الثقات الذين يحتج باجتهادهم ومع ذلك لم يوفّق في تعلّمه.

<u>هل النحو العربي أصعب أم النحو الألماني؟</u> قد أثبتنا بالبرهان عقلا ونقلا أسرار صعوبة النحو العربي، فهل يكون هذا الأخير أصعب من النحو الألماني، أم العكس؟ أول صعوبة تواجهنا في الحديث عن النحو الألماني هي إشكالية تحديد بدايته وواضع لبناته فإذا كان عمر اللغة الألمانية لا يتجاوز القرنين على أوسع تقدير وتوسيع، فعمر نحوها يكون أقل من تقدير سنّها، معلوم أن "اللغة الألمانية ليست لها في الأصل قواعد، ولكن جهد النحاة الألمان في إدخال القواعد اليونانية عليها لمنهجتها، لأنها لغة دائمة التغيّر، وعلى يد جهود علمائها في صناعة نحو لها، خضعت اللغة الألمانية للقواعد بشكل كبير، حتى صار الإعراب في اللغة الألمانية سمةً بارزة فيها ومهمّة، بل ويكاد يغيّر المعنى المقصود كلياً، وهو مستخدم بكثرة."[20] غير أنّ العلامات الإعرابية في اللغة الألمانية ليست حركات فتحة وكسرة وضمة كما في اللغة العربية، وإنما هي أحرف توضع في نهاية الكلمة أو تغيير يطرأ على أدوات التعريف والتنكير والضمائر وما إلى ذلك، وهذا يدل على أن الألمانية ليست لغة مرنة.

لماذا النحو الألماني؟ لأن هناك مواطن تشابه بين العربية والألمانية، ولهذا أرتأينا أن نقارن بين النحوين بحيث أن كلا منهما يحتوي على المعرب والمبني مثلا الكلمات المعربة في الألمانية:

1. Substantiv (Nomen) : الاسم مثل Buch والتي تعني كتاب.
2. Verb : الفعل مثل lesen والتي تعني يقرأ، تقرأ، يقرؤون... إلخ.
3. Adjektiv : الصفات مثل groß تعني كبير. للملاحظة: هناك بعض الصفات مبنية لكنها قليلة مثل rosa والتي تعني وردي.

أما الكلمات المبنية مثل:

1. Präposition : حروف الجر مثل von, auf, unter ,über.
2. Adverb: الظروف مثل beispielsweise والتي تعني "على سبيل المثال"، وقد تكون الظروف في الغالب صفات لا يتم إعرابها مثل schnell والتي تعني كظرف "بسرعة"[21]

أما إذا جئنا إلى إثبات صعوبة النحو الألماني، فلنأخذ مثلا البنية الصرفية للغة الألمانية، فأهم ما يميّز الكلمة في اللغة الألمانية "هو إمكانية تجميعها من عدد كبير من الكلمات الأخرى لتكوّن كلمة طويلة لها معنى مخصص أكثر من آخر كلمة في سلسلة الكلمات المركبة. من الأمثلة على الكلمات المركّبة: Lösungsverfahren تعني: "أسلوب الحل"، وكذلك جملة Hausmeistertätigkeiten تعني: "واجبات المسؤول عن المنزل"[22]،

وانظر في الألمانية خاصية أخرى، فقد تصل الكلمة في هذه اللغة إلى خمسة عشر حرفًا مثلا كلمة: enstschuldigung بمعنى "معذرة". وهذه خاصية صعبة في الألمانية لا توجد في العربية، ووما يتولّد عن هذه الخاصية صعوبة نطق الكلمات وخاصة لدى المبتدئ. فمن أبرز موائز العربية أن أكثر ألفاظها ثلاثية في الأسماء المتمكنة والأفعال المتصرفة التي يدخلها التصريف، ولهذا جعلوا الميزان الصرفي

من حروف ثلاثة (ف ع ل). وهذا دليل على خفّة الكلمة العربية على اللسان وأسرع للوقت والفهم وأخصر للكتابة وأوفر للجهد.

ومن مواطن الاختلاف بين العربية والألمانية أن الفعل في اللغة الألمانية أساسي في بناء الجملة ويأتي دوماً في المرتبة الثانية ولا يمكن تكوين جملة ألمانية صحيحة بدون فعل على خلاف الجملة الاسمية في العربية، وهذا من ضيق اللغة الألمانية وعسر نحوها.

فإذا جئنا إلى الإعراب، الذي وسم بأنه أصعب ما في النحو العربي، فإنّ العربية الفصحى لا تنفرد به، "بل إنّ هناك لغات كثيرة، لا تزال تحيا بيننا، وفيها من ظواهر الإعراب المعقّد، ما يفوق العربية بكثير، فاللغة الألمانية، تقسم أسماءها اعتباطا إلى مذكر ومؤنث وجنس ثالث لا تعرفه العربية وهو: "**المحايد**" وتضع لكل واحد من هذه الأجناس الثلاثة، أربع حالات إعرابية، هي حالات: الفاعلية والمفعولية، والإضافة، و**القابلية**، وهذه الحالة الأخيرة لا تعرفها العربية، وهي إعراب المفعول الثاني، فهي من حالات المفعولية في العربية، وليست حالة خاصة فيها. تلك هي حالات إعراب الاسم المفرد المعرف في الألمانية. والمفرد والمنكر له أربع حالات أخرى، وكذلك الجمع المعرّف والجمع المنكر."[23] فهذه بعض الأمثلة فقط، تبين كم هي حجم الفجوة بين طراز النحو العربي وطراز النحو الألماني فالفروق ماثلة وصريحة ولا رغوة عليها.

وإذا عقدنا مقارنة بين النحوين، من حيث الجملة فإننا سنحمد للعربية نحوها فـ"بناء الجملة في اللغة الألمانية، له نظام صارم، فالفعل يحمل فيها المرتبة الثانية دائما، إلا في الجمل الفرعية، كالجمل التعليلية مثلا، فإن الفعل يؤخر فيها إلى نهاية الجملة. وإن من يشكو من كثرة جمع التكسير في العربية، وغلبة الشذوذ على قواعد هذا الجمع فيها، سيحمد للعربية الاطراد النسبي في هذه القواعد، إذا درس اللغة الألمانية، ورأى كثرة صيغ هذه الجموع فيها، وفقدان القاعدة التي تخضع لها

تماما، إلى درجة أن كل كتاب في تعليم قواعد الألمانية، تبدأ صفحاته الأولى بهذه العبارة: "**<u>احفظ مع كل اسم، أداة تعريفه، وصيغة جمعه، لأنه ليست هناك قاعدة لذلك.</u>**"(24)

إذن؛ فمهما يكن النحو العربي ذو صبغة حديدية في قواعده، فإن النحو الألماني ذي صبغة فولاذية، فلو عرف كل باحث من بحّاثة العربية الذين تولوا دعوة التيسير ما في لغته من مزايا وفضائل لأدّى زكاة ما يتعلّمه بترغيبها إلى قلوب النشء وشكرها لهم، ولأغمض على الذي تجلمد عليه من النحو والتصريف مهما كانت مسائلهما مغفلة، ولم يهن في نصر العربية وعلومها قاطبة، كيف وأن هو ناموس العربية الذي تسير عليه حيث سار لسلطانه النافذ عليها.

"فليست العربية إذن، بدعا من اللغات في صعوبة القواعد، غير أن شيئا من هذه الصعوبة، يعود كذلك إلى طريقة عرض النحويين لقواعدها، فقد خلطوا في هذه القواعد بين الواقع اللغوي والمنطق العقلي، وبعدوا عن وصف هذا الواقع إلى الممحكات اللفظية."(25) بمعنى آخر فأزمة النحو قد كانت كذلك في المنهج من حيث الاختيار والانتقاء لمعلّم النحو ولمواد النحو التي تدرس حسب المراحل، وليست الأزمة كلها في النحو نفسه من حيث أنه صعب، ولقد كان الجاحظ على حقّ كما سبق ذكر قوله، عندما قال: "أما النحو فلا تشغل به قلب الصبي"، فقد يكون من العبث تدريس باب الاشتغال للغلمان وإن كانوا في طور الثانوي، ففي مثال قول النحاة:"إن أخاك قابلته فأكرمه"، قالوا في نصب أخاك أنه منصوب على الاشتغال أو أنه اسم "مشغول عنه" ومعنى ذلك أن الفعل بعده "قابلته" قد نصب ضمير الاسم المتقدم "أخاك" فلم ينصب واشتغل بنصب ضميره فنصبه إذن على الاشتغال وهو مشغول عنه، والأصح كما يرى إبراهيم السامرائي أن الاسم منصوب لأنه مفعول به قدّم على فعله والضمير في قابلته هو اسم إشارة عائدة على الاسم المتقدّم ولا حاجة أن نقول أنه في محل نصب."(26) وهذا المثال إذا لقّن للصبيان فإنه يشتت

قلوبهم عن حبّ اللغة والقراءة، وما يقال عن هذا الباب كذلك يقال على باب التنازع وباب التعجب، وغير ذلك.

كلمة أخيرة:

وإذا كان الألمان يهتمون بلغتهم الصعبة والعصيّة، والتي لو سألت ألمانيا معاصرا أن يقرأ فقط نص مكتوب بالألمانية عمره قرن لاستشكل عليه الأمر قراءة وفهما ووقع في حيص بيص، لأنها لغة دائمة التغيّر العقد والعقد، والتي لولا جهود نحاتها ولغويها لصارت في عداد اللغات الموات، وهم يحاولون إحياءها بدءً بالاهتمام بالمعلّم الذي يشرف على تعليم أطفال اليوم وهم رجال الغد، لأنهم آمنوا أن الاهتمام بالمعلّم هو الاهتمام بالطفل بطريقة أو بأخرى، ثم إنه مهما أهتم الألمان بلغتهم للتواصل والتعلم والتحضّر، ولأنها لغتهم الرسمية في الدستور، ومهما ارتفع شأن هذه الأهمية بالنسبة إليهم، فإنهم بإمكانهم الاستغناء عنها بلغة من اللغات المنحدرة من اللاتينية بحكم تشابه الحروف الألفبائية كتابة ونطقا بينها وبين الألمانية.

بينما العربية بالنسبة إلينا ليس لنا محيد عنها لا في الدنيا ولا في الآخرة، لأنه ليس لنا بديل تواصلي آخر عنها، والذي يعنينا ويهمنا نحن العرب من لغتنا أهم بأضعاف كثيرة من الذي يهمّهم من لغتهم الألمانية بحيث إن ارتباط العربية بالنصين الدينين القرآن والسنّة الذين عليهما مدار الدنيا والآخرة، فلو أخذنا مثلا ظاهرة الإعراب في النحو التي هي من أخطر الظواهر في تحوّل المعنى الذي إذا تغيّر أثّر ذلك على مفهوم النص، وإذا أثّر على هذا الأخير أثّر على الاعتقاد بطريقة أو بأخرى، فمن هذا الاختلاف الجذري في الرؤية إلى النحو فينبغي أن نقضي على الفكر المأفون الذي يذر المخضرّ المورق مصفرّا ثم هَشِيمًا تَذْرُوه الرِّياح.

ثم إن للنحو العربي نشوة علميّة لا يعرف قدرها إلا من تذوّقها وقرّت في قلبه وروحه وعقله ولسانه، ومن يتذوّقها حتما يدرك جلال العربية وجمالها، وإن

معرفة النحو تمام المعرفة على عقابيله وعراقيله يرشدنا إلى معرفة طاقة اللغة المتجددة في كيفية حملها المعاني في أصواتها وحروفها وفي تعانق كلماتها التي تشكل أنواعا من الجمل والتراكيب بخيوط بيانية سحيلة تؤدي بدورها وظائفا شتى لا يراها إلا المتضلّع في علم العربية. ألم يقل نابغة العرب وشيخ العربيّة الأول الخليل بن أحمد، كما سبق أن أشرنا إليه، في الإحالة رقم ستّة: "لا يصل أحد من علم النحو إلى ما يحتاج إليه حتى يتعلّم ما لا يحتاج إليه."

فتأمّل هذا القول بعين معدّلة بعيدة عن الأغراض والهوى، وتدبّره بحجة العقل المنير، فستدرك أن النحو كلّه من "**كَلَامُنَا لَفْظٌ مُفِيْدٌ كَاسْتَقِمْ** إلى **والْتُزِمَ الإدغَامُ أَيْضًا في هَلُمّ**."* تسكن كل مسألة من أختها "مَكَانَ الكُلْيَتَينِ من الطِّحَالِ" كما قال الشاعر العربي قديما، ولأصبح النحو عندك مو موقا ومحبوبا، حينها تدرك أن هذا الرجل الذي طلب العلم على حساب رزقه، سبق زمانه حقا بألف سنة، كما نظّر له عبد الرحمن الحاج صالح وسمى عليه النظرية الخليلية والتي يقودها أكثر من أربعة عقود، ومن أحضان هذه النظرية تشكّلت فكرة الذخيرة اللغوية العربية القومية، وهي مشروع الألفية الثالثة فإن نجح فسيكون للعرب شأن ولو بعد حين.

مرجع الإحالات:

1 – **دلائل الإعجاز، للإمام أبي بكر عبد القاهر الجرجاني النحوي**، قرأه وعلق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر، دار المدني، مصر، ط3، 1992، ص: 9.

2– **المصدر نفسه، ص: 8.**

3 – **المفصل في علم العربية: لأبي القاسم الزمخشري**، تحقيق سعيد محمود عقيل، دار الجيل بيروت، ط1، 2003، ص: 06.

4 – **المصدر نفسه**، ص: 5.

5 – **قطوف أدبية حول تحقيق التراث:** لعبد السلام هارون، مكتبة السنّة، القاهرة، ط1، 1988 ص: 147.

(6) **المنظومة النحوية المنسوبة إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي، دراسة وتحقيق:** د، أحمد عفيفي، دار المصرية، القاهرة، ص: 253.

7 – **نقلا عن: الصورة والصيرورة (بصائر في أحوال الظاهرة النحوية ونظرية النحو العربي):** د، نهاد الموسى، دار الشروق، عمان، ط1، 2003، ص: 63.

8 – النحو الغائب: د، عمر يوسف عكاشة، دار الفارس، ط1، 2003، ص: 38.

9 – النهر المادّ من البحر المحيط، للإمام أبي حيّان الأندلسي، تحقيق: عمر الأسعد، دار الجيل بيروت، ط1، 1995، ص: 24.

10 – انظر في الهامش: المفصل في علم العربية، ص: 06.

11 – النحو العربي بين الأصالة والتجديد: د، عبد المجيد عيساني، دار ابن حزم، لبنان، ط1 2008، ص: 62.

12 – نقلا عن: قضايا معاصرة في الدراسات اللغوية والأدبية: د، محمد عيد، عالم الكتب القاهرة، 1989، ص: 57.

13 – العربية والإعراب: د، عبد السلام المسدي، مركز الجامعي، تونس، 2003، ص: 15.

14 – الإمتاع والمؤانسة: لأبي حيان التوحيدي، تحقيق: هيم خليفة الطعيمي، المكتبة العصرية بيروت، ط1، 2003، ص: 139.

15 – نظرية التعليل في النحو العربي بين القدماء والمحدثين: د، حسن خميس سعيد الملخ، دار الشروق، عمان، ط1، 2000، ص: 214.

16 – رسائل الجاحظ، تحقيــق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1964، ج3 ص: 38.

17 – نظرية التعليل في النحو العربي بين القدماء والمحدثين، ص: 214.

18 – المرجع نفسه، ص: 215.

19 – الحثّ على طلب العلم والاجتهاد في جمعه: لأبي هلال العسكري، تحقيق:عبد المجيد ديّاب دار الفضيلة، القاهرة، 1997، ص: 93.

20 – اكتب على صفحة الانترنت (قوقل): قواعد اللغة الألمانية الحديثة، ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

21 – انظر: الموقع نفسه.

22 – انظر: الموقع نفسه.

23 – **فصول في فقه اللغة:** د، رمضان عبد التواب، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ط6 1999، ص: 418.

24 – **المرجع نفسه،** ص: 416، 417.

25 – **المرجع نفسه،** ص: 417.

26 – **انظر: من سعة اللغة العربية:** د، إبراهيم السامرائي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1994 ص: 211.

* الشطران هما من ألفية ابن مالك باعتبارها تمثّل خلاصة النحو العربي نظما، وقد جرت العادة في التصنيف عند القدماء بدْءً من سيبويه (ت: 180 هـ) إلى الأشموني (ت: 929 هـ) كأخر نحوي عرفه التاريخ، أن يبدؤا من أقسام الكلم ويختموا بباب الإدغام، بل هذا التبويب ظل جاري إلى عباس حسن صاحب "النحو الوافي" الذي نشره سنة (1960) في العصر الحديث.